الفصل السابع

المنهج الفكرى

نستعرض فى هذا الفصل منهجًا هامًا من مناهج اليوجا وهو المنهج الفكرى Jnani Yoga ومراحل الفكر العقائدى التى تمر بها البشرية ، ونستعرض المصادر التى نستقى منها مبادئ السلوك الإنسانى وعلاقة الأخلاقيات بالديانات المنزلة والضمير والقانون ، وكذلك نوضح القصور فى تصوراته العقل والفكر وعلاقتها بالعبادات والشعائر .

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد : (يوجا التأمل) :

ويسمى يوجا الـجَنَانِ Jnani Yoga

يعـرف هـذا المـنهج بأنـه رياضـة تـساعد عـلى تحقيـق الإشراق الروحى ، بالصمت والتأمل والتركيز .

وعلينا أن نخصص كل يـوم بـضع دقـائق للتأمـل الـصامت فى مكان هادئ نكون فيه جالسين أو مـستقلين ، لا نتحـرك ولا نـشغل عقلنا بشىء على الإطلاق ، فإذا توافر السكون وجدنا نفوسـنا وقـد سـبحت فى هدوء وسكينة.

ويعرف التأمل بأنه حالة صادرة من سكون الكائن الحى بأكمله، وسوف يحقق لنا ذلك «اجتلاء الذات» ، ولابد مـن ممارسـة التأمـل والاستماع إلى صوت السكون كلما شـعرنا بحاجتنـا إلى التجديـد أو إعادة شحن نفوسنا .

وقد يكون من المفيد بعد انتهاء تدريب اليوم أن نجلس فى صمت ، لنتبصر ما يتوقد بداخلنا من طاقة ، وخلال تلك الفترة نسحب بذواتنا (مؤقتًا) مما يحيط بنا من أنشطة مصطنعة فى حياتنا اليومية .

وتساعدنا جلسة اللوتس فى استجلاء التأمل ، فمعها يستقيم العمود الفقرى ، وينزرع الجسم ثابتًا على الأرض . وهو الوضع الأمثل الذى توصل إليه خبراء ممارسة اليوجا فيما مضى للتأمل والتبصر ، ونركز انتباهنا إلى داخل أنفسنا ، وعندما نقوم بذلك فسوف نتدرج فى إدراك منشأ وجودنا ، ونتوحد تلقائيًا مع هذا المنشأ، رويدًا رويدًا ، سوف نحس بوحدانية الله المطلقة ، وتنتج حالة لوجودنا نستشعر معها الفرحة والنعيم والسلام الحقيقى .

عندما نجلس فى استرخاء مريح ، وينتظم تنفسنا ، نبدأ فى التركيز على أنفسنا الحقيقية متمثلين لها كشىء منفصل عن الجسد وإن كانت تشغله ، ويصبح الجسم مجرد قشرة تحوى لب الثمرة ، أو هو الغلاف المريح النافع ، ولكنه أداة لا أكثر ، وآلة لخدمة الذات الحقيقية ، ونتأكد عندئذ من حقيقة وجودنا لا بالجسد فحسب بل بالروح الخالدة المطلقة الحرَّة ، وتصبح «الأنا» جزءًا من الروح الكلية «روح الكون» ، قطرة فى محيط الروح ، ذرة روحية تتمثل فى الوعى الحاضر ، وتؤثر فيه لبلوغ الكمال .

«مراحل الإيمان» :

للحياة الروحية والعقلية ثلاث مراحل :

أولاً : الطفولة البشرية :

وهى ذلك المستوى الذى يسيطر فيه على الإنسان عقله الغريزى، وفيها لا يعنى الفرد إلا بما يتصل بجسمه من حاجات كالطعام والمأوى واللباس والمتاع ويشيع بين الأفراد فى هذا المستوى نوع من الحرية والديمقراطية بأحلى معانيها فلا يشعر أحد بأنه أتقى من أحد أو خير منه .. فليس ثمة إدراك بالخطيئة أو الإثم .. وليس ثمة شعور بالندم .

ثانيًا : الصحوة البشرية مع العقل وتصوراته :

عندما يمسك العقل بزمام الأمور ، ويصحو فى الإنسان شعور بالخير والشر ويخط فى عقله قائمة بأشياء حسنة خيرة ، وقائمة بأشياء سيئة شريرة ، وتكون قائمة السيئات غالبًا أطول من قائمة الحسنات .

ويتميز الناس فى هذا المستوى بروح البغضاء والكراهية فى قلوب المؤمنين نحو من لا يتبعون دينهم ، وهؤلاء يبادلونهم بغضًا ببغض وحقدًا بحقد وكيدًا بكيد ، لتصبح المحبة البشرية اسمًا بغير مدلول.

والرأى السائد بين كل جماعة منهم أن دينهم هو الدين الحق . وأن ما عداه كفر وشرك وإلحاد وتجديف ، وأن أتباع دينهم هم أحباب الله وأن أتباع كل دين غيره هم أعداء الله ، وأن الله لأعدائه بالمرصاد ، ومن الناس من يقوم نيابة عن الله فى الانتقام من أعدائه والتنكيل بمن خالف دينهم أو حتى مذهبهم وإن كانوا من نفس الدين .

وفى هذه المرحلة تختفى المحبة التى سادت فى المرحلة الأولى بين الناس وبعضهم ، ويندثر شعورهم الغريزى بوحدة أصلهم ووحدة مصيرهم .

ثالثًا : التعقل الإنسانى .. والإشراق الروحى .. والنور الإلهى :

عندما تتكشف حجب التعصب، فيرى الإنسان أن كل الديانات حق، ويرى أن الله هو الذى يعبد رغم تعدد الأسماء للآلهة، والصور التى يتخيلها له البشر . فالصورة التى يتخيلها الإنسان المتقدم عن ذات الله غير ما يدركه عقل الإنسان البدائى لله ، وكل منهما يسير على المرحلة التى بلغها من الطريق .

مبادئ السلوك والأخلاق :

إن الباحث المدقق سوف يتضح له سخف التقسيم القائم بين الحق والباطل ، فهما يختلفان باختلاف المكان ، ويتعرضان على مر

العصور للتبديل والتغيير ، ويتعرض العاقل فى أيامنا هذه للحيرة فيما يتعلق بدستور الأخلاقيات ، فقد اختلطت علينا القيم والمفاهيم، ولا ندرى بأى ميزان نزن الحق والباطل ، وأن نفرق بين الحلال والحرام .

وإذا نظرنا نظرة سريعة إلى موضوع السلوكيات والأخلاق Ethics ، فسوف نتبين ثلاثة مصادر مختلفة لإقرارها وهى :

أولاً : قواعد السلوك طبقًا لوصايا الديانات المنزلة .

ثانيًا : قواعد الأخلاق طبقًا لسلطان الضمير .

ثالثًا : قواعد المنفعة طبقًا لما يمليه العقل والقانون .

الأخلاقيات والديانات المنزلة :

إننا نرى هؤلاء الذين يعملون الحسنة طمعًا فى عشرة أمثالها ، ويمتنعون عن السيئة خوفًا من العذاب إن قارفوها ، وذلك لا يجمل بمن نضج فكره ، فهو يعمل الحسنة ؛ لأنها خير ، ويقوم بالإحسان لا يبغى جزاء ولا شكورًا ، ونجد أن الكثير من الفلسفات القديمة تقرر مراعاة شكليات سلوكه واتباع طقوس استبدادية لا يقرها العقل ، وتأباها الروح ؛ لأنها سمت عن مستوى تلك الشكليات ، فالأخلاق عند أصحاب الديانات المنزلة تجعل أساس الطهارة والأخلاق ما أنزل الله على الأنبياء والرسل . ونتبين أن الشرائع والسنن التى يسنها الأنبياء نزلت عليهم وحيًا من عند الله ، وقوبلت

بالسمع والطاعة على درجات متفاوتة من إيمان الشعوب بها فى مرحلة أو أخرى من مراحل تطورها .

ومع ذلك فقد اختلف شيوخ كل دين فى تفسير نصوص كتابهم، وأدى اختلافهم إلى أن أصبح كل دين شعبًا ومذاهب ، وتباينت الآراء فى تفسير كل شيعة لما أنزل عليهم ، وتصر كل شيعة على أن تفسيرها هو الصحيح الذى يستند إلى ما أنزل الله على رسولهم ، فأيها نأخذ وأيها ندع ؟!

الأخلاق والضمير :

يقولون أن الإنسان يعرف الخير والشر بإحساسه ، وأن الله جعل فى كل إنسان قدرة ذاتية على التمييز بين الخير والشر ، وأنه بدافع من ضميره يتحكم فى نفسه ، فيفعل الخير وينأى عن الشر .

ولكن الأخذ بهذا المبدأ يضعنا فى حيرة بالغة ؛ إذ من شأنه أن يجعل عدد مبادئ الأخلاق بعدد أفراد المجتمع ؛ لأن لكل فرد ضميرًا يختلف كثيرًا أو قليلاً عن ضمير الآخرين ، وبذلك تختلف المثل العليا وقواعد السلوك ، ويتسع الخلاف إلى ما لا نهاية .

وكلما زادت النفس صفاء وتقدمًا ، ازدادت المثل الأخلاقية ارتفاعًا وتهذيبًا ؛ لأن تفتح الضمير يكشف له عما فى المثل الموروثة من غلظة وقسوة ، فينحيها ليختار ما هو أرقى منها وأليق بعد أن كان يراها صالحة فى مرحلة سابقة .

قواعد السلوك طبقًا للعقل والقانون :

إذا اعتبرنا المصدر الثالث وهو أن الفضيلة هى ما تمليه المصلحة وما يقره القانون ، فهم يقولون أن قانون الطبيعة يرتكز على القوانين الإلهية الأزلية التى لا تتبدل ، قوانين الخير والشر التى أدركها الإنسان بعقله وأقرها المجتمع فى قوانينه . ولكن لو أن عقلنا كان دائمًا صافيًا كاملاً لكان الأمر سهلاً وبسيطًا ، ولما احتجنا لغيره دليلاً وهاديًا ، ولكن الواقع يثبت لنا أن عقولنا غير صافية ، وتفكيرنا مضطرب مشوش ، وفهمنا خاطئ ، وتقديرنا ملىء بالأخطاء والجهل والغباء .

إن قوانين أية أمة إنما هى صورة لخير ما وصلت إليه مثلها الحضارية . ولكن هذه المثل تتطور بسرعة أكبر من السرعة التى تعدل بها القوانين ؛ ولذلك تكون القوانين دائمًا متخلفة عند تطبيقها بالنسبة لما نراه صوابًا أو نعده خطأ ، وقد نجد الكثير من الأشرار يرون أنفسهم شرفاء تستريح ضمائرهم إلى ما فعلوا ما داموا آمنين غائلة القانون فلا يناهم بالعقوبة أو الجزاء .

إن الإنسان فى سعيه وراء ما ينفعه يندفع حتى يحتفظ لنفسه بالكثير ، فيسعد هو ويشقى غيره ، وما الذى يمنعه من ذلك ما دام ينفذ القانون حرفيًا لا يحيد ولا يزيد ، والقانون يبيح له ما يفعل .

ولكن القانون ما هو إلا محاولة إنسانية لوضع قواعد سلوكية يسير عليها الناس لخير البشرية ، وإذا كان الضمير يسمو دائمًا على

عقل الإنسان درجة أو اثنين ، فإن القانون متخلف عنه خطوة أو خطوتين .

أسس التطور :

انظر إلى الرقيق وكيف كان الإنسان يبيع أخاه الإنسان وهو يحسب أنه يحسن صنعًا ، وانظر كيف كان الناس تُحْرَقُ أحياء بتهمة السحر مرة والزندقة مرة أخرى ، إننا نرى فى ذلك وحشية ، بينما كان الناس يتلهون بالحديث عنها ويهرعون للاستمتاع برؤيتها فى الأزمات الغابرة .

لقد كان القتل مفخرة للإنسان القوى حتى إذا تكونت الأسرة والقبيلة فأصبح قتل فرد من القبيلة أو الأسرة عملاً سيئًا ، ولكنه عمل من أعمال البطولة إذا كان القتيل من قبيلة أخرى ، ولكننا لا نجد فى القتل مفخرة بأى وجه ، فالقتل عندنا خطيئة ، والقاتل معتد سواء أكان القتيل قريبًا أم غريبًا .

هذا التطور كان الفضل فيه للأنبياء والمرسلين وكان نتيجة ليقظة الضمير وأخيرًا فإنه نتيجة لتقدم الإنسان العقلى .

إن ازدياد شعور الإنسان بحرمة العدالة يستند إلى نمو وعيه الروحى ، وكلما تطورت روح المجتمع وزاد فيه الشعور بآلام الغير كلما تفتحت روح الفرد فزاد إحساسه بما يحس به غيره ، إنه يبدأ بزوجه وأولاده ، يحس أنهم كنفسه ، ثم تتسع الحلقة فتشمل أسرته

كلها ، ثم قبيلته ، ثم القبائل المتشابكة معها ، ثم أمته ، ثم غيرها من الأمم التى تتحدث نفس اللغة أو تؤمن بنفس الدين ، ثم تتسع الحلقة حتى تشمل البشرية كلها ، أحمرها وأسودها ، مؤمنها وكافرها ، ثم تتسع لكل الخلق من زاحفة وذات جناح ، ثم كل شىء فى الوجود .

إن كل نظرية صحيحة من ناحية ، وتستطيع أن تنهض بجزء من العبء ولكنها بمفردها تعجز عن القيام بالعبء كله .

فالأديان السماوية والتقيد بالضمير والاستناد إلى العقل ، هذه هى المصادر الثلاثة التى ينبغى أن ترتكز عليها مبادئ السلوك والأخلاق .

نبذ التعصب :

ذهب أحد الأشخاص إلى أحد حكماء اليوجا لكى يستفسر منه عن كيفية ممارستها ، فاستقبله الحكيم بالترحاب ، ثم بدأ فى تقديم الشاى إليه .

وقام الحكيم بصب الشاى فى فنجان ضيفه حتى امتلأ الفنجان عن آخره ، ولكن الحكيم لم يتوقف ، بل استمر فى صب الشاى الذى بدأ ينسكب خارج الفنجان .

اندهش الضيف وهو يراقب الشاى المنسكب ، ولم يتمالك نفسه فقال للحكيم :

توقف فلن يستوعب الفنجان مزيدًا من الشاى .

وهنا رد عليه الحكيم :

تمامًا يا صديقى ، أنت مثل هذا الفنجان ملىء بأفكارك ومعتقداتك ، فكيف يتسنى لى أن أشرح لك أفكارى قبل أن تفرغ ما بداخلك ؟

العقل وتصوراته :

يرى بعض المتعصبين المتعنتين والغلاة المتطرفين أن الهدى فيما يتبعونه هم فحسب ، وأن كل طريق غير طريقهم ضلال بعيد ، ولكن الحقيقة أن للحق أوجهًا متعددة يرضى كل وجه طائفة من الناس ، وكم من الأفكار قد تبدو متناقضة مع بعضها ، فإذا أنعم النظر فيها تكشفت عن أسس متقاربة متجانسة .

وقد يكون السبب فى الخلاف بين كثير من التعاليم وهو استعمال الألفاظ والمسميات أو سوء استعمالها ووضعها فى غير مواضعها ، فإذا فهمنا الكلمات والاصطلاحات فهمًا صحيحًا فسوف يزول الخلاف بين الكثير من الحقائق التى وضعت الكلمات للدلالة عليها.

وتفقد التعاليم المتعارضة ما بينها من التعارض .

إن الإنسان البدائى يحاول إرضاء غريزة العبادة فى نفسه ، إنه يرى أرضه المعطاءة تنبت له من خيراتها ، فيرمز لها بقطع من الحصى

أو الحجارة ثم يقدسها أو يعبدها ، ثم هو يهاب الرعد والبرق والنجوم والرياح وغيرها من ظواهر الطبيعة فيسجد لها ويحز إلى الأذقان ، ثم هو يتطلع إلى الشمس فيراها مصدر الدفء والخير ، فيقدسها ويعبدها ، ثم يتطور الفكر البشرى ، ويتصور أن الله يتصف بنفس صفات الإنسان ، إلا أنه يفوته فك كل صفة ، وتنشأ طبقة من الكهان يتغنون بصفات الله ، ويرتلون له عبارات الخضوع والطاعة والدعوات .

وبينما نجد الكثيرين من الكهنة مخلصون أمناء ، إلا أننا نجد أغلبهم يستغل سذاجة البسطاء ، ويتخذ منه بقرة حلوبًا تهيىء لهم مترف العيش ، واختلط الأمر على العامة والدهماء ، فلم يميزوا بين الرمز والإله ، فعبدوا الرمز وغاب الإله عن وعيهم .

وقد أدرك الكثير فساد بعض تعاليم الكهنة ، فخرجوا من حظيرة الجماعة وهم يذكرون باحتقار وازدراء أولئك الذين بقوا ثابتين حيث كانوا هم إلى وقت قريب ، وهذا خطأ واضح ، فإن المحافظين يرون فى تلك التعاليم ما هو أصلح لبيئتهم وأنسب لظروفهم وإدراكهم ، وعندما ينضج عقلهم ويسمو وعيهم ، فسوف يلحقون بمن سبقوهم ، واستهزاء المتحررين بالمتخلفين لا يقل خطأ عن ثورة المحافظين على المجددين ، والعاقل من ينظر إلى الناس جميعًا نظرة المواساة والحدب ، فالكل متجه إلى الله بغض النظر عن المرحلة التى قطعها من الطريق .

التعقل الإنسانى :

من البدهى أن الله سبحانه وتعالى لا يتغير قط ، وإنما مرجع الخلاف هو تطور عقول البشر ، هؤلاء الذين تتألف منهم جماعة المتدينين .

كان الإنسان ينحت صنمًا يرمز لذلك الإله ، ثم يخر له راكعًا أو ساجدًا ، أو يرقص حوله ويقدم له القرابين ، وقد يكون من بينها دم الإنسان . ثم يزداد تطور الفكر الإنسانى مع الأيام ، ويصبح له إلهًا جديدًا أكثر عطفًا ومحبة ، وتتقدم البشرية خطوة خطوة ، فيرتقى تصور الناس لصفات الله، أو ما يتخذونه رمزًا له ، وهم يعتقدون أنهم أحباؤه المختارون الذين اصطفاهم لنفسه ، فهو ينزل معهم إلى ميدان القتال، إن قاتلوا لينصرهم على أعدائهم وأعدائه ، وهم لا يشعرون أنهم جميعًا يعبدون إلهًا واحدًا تحت اسمين مختلفين ، وأن الله الواحد لا يفرق فى حبه ورحمته بين الفريقين المتقاتلين ، ولا شك أن كل فريق يرى الله بمنظاره الخاص ، ويرى إرادة الله صورة لإرادته ،ومشيئة الله صورة لرغباته التى يرجو تحقيقها .

أليس من الغريب أن يتمسك أتباع كل دين باسمه ، ولكنهم لا يعملون بأوامره ، ولا ينتهون عن نواهيه ، إنهم لا يعملون إلا بما يوافق أهواءهم من الشرائع والأحكام التى جاء بها دينهم ، ولا يتمسكون إلا بالقشور والشكليات .

إن الله عز وجل فى فترات من تاريخ البشرية أوحى إلى نفوس سامية بما يحتاج إليه الناس فى الفترة التى تعيش فيها لتسدى إليهم ما يحتاجون من هدى وإرشاد، وتأخذ بأيديهم فى طريق الحق والسداد، وعاشت بينهم فى صورة واحد منهم يؤدى رسالة النبى أو المعلم، وتاريخ البشرية حافل بهؤلاء القادة الروحانيين التى انحدرت إلينا سيرهم عبر العصور، ومنهم من كان أسمى من جيله سموا جعل أهله ينكرونه فقتلوه أو أخرجوه.

ذلك النبى كان عملاقاً سبق معاصريه من بنى جنسه فى عقله وتفكيره، وقد أدرك ما فيه الخير لشعبه، فهو إنسان بلغ من التقدم الروحى مالم يبلغه معاصروه، وكان أكثر استماعاً إلى صوت روحه منهم إلى أصوات أرواحهم، وكان صوت ضميره وحديث روحه هو صوت الله ووحيه.

لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يرسل وحياً للناس فيه ما يعلمون ومالا يعلمون، يبين فيه الحسنة والسيئة، فيتبعون الحسنة ويمتنعون عن السيئة لأرسل وحياً واحداً لا خلاف فيه، ولو أراد عز وجل أن ينزل دينا بقانون للأخلاق والسلوك، يطبق على جميع الناس فى جميع العصور لوضعه فى صيغة واضحة جلية، لا يستعصى إدراكها على أشد الناس غباءً وجهلاً.

إنه سبحانه وتعالى يعلم من غير شك أن البشر يتطورون مع الزمن وقد سبقت حكمته وعلمه بما سيحتاج إليه الناس من تطور فى قانون السلوك.

إن تطور النفس وارتقائها هو ما هدفت إليه الشرائع، والقاعدة التى وضعت لذلك التطور هى خطوة واحدة فى كل مرة، والله غنى عن العالمين وغنى عن عبادتهم وابتهالاتهم، إنما الذى ترجع إليه فائدة ذلك كله هو الإنسان نفسه، إنه هو الذى يكسب من حبه لله، وما كان سبحانه لينال من فعل الإنسان ضر ولا نفع وهو الغنى الحميد، والناس هم الفقراء إلى الله وهم المحتاجون لحمده وعبادته.

العبادات والشعائر:

إن التقوى والعبادة والتقرب لله فائدتها للإنسان نفسه خالصة لا يشاركه الله فيها، إنها ترفع الإنسان إلى مستويات تقر عينه بما فيها، ويرضى عن نفسه بالوصول إليها.

إن الإنسان بالتقى يرتفع إلى حيث يصبح قادراً على ما كان يعجز عنه قبل بلوغ ما بلغه من مرتبة، وهو بذلك صاحب المنفعة فى تعبده، لا ينفع بعبادته إلا نفسه، فإن هوى إلى حضيض الظلمة والعجز فائمه على نفسه.

إن الصلاة لا تنفع الله سبحانه جل وعلا، ومع ذلك فإن فيها أعظم الفائدة وأكبر الخير للإنسان، لأنه بفضلها يقترب من مرضاة الله وفضله، وتنسجم بها روحه مع الملأ الأعلى، ويفتح مصاريع قلبه لتيارات الحكمة والقوة التى تغمر من يتقرب إلى الله مصدر كل حكمة ومنبع كل قوة.

هذه الصلاة هى التى تجعل الإنسان ينتقل إلى نوع من الاندماج فى قدرة الله وحكمته فتغمر الحكمة والقوة روحه، وعندما يردد الآيات فى صلاته يجد فيها العون على هدوء العقل والشعور بالرضا.

حين يصلى الإنسان ينقل نفسه وروحه إلى جوار الله، حتى تمس روحه حجب العظمة الربانية، فتتصهر بنارها وتصفو بنورها.

ولكى تؤتى الصلاة ثمارها يجب ألا تكون صادرة عن الشفتين كأنما هى ثرثرة الببغاء، فهذه لا تؤدى إلى فتح مصاريع العقل لتقبل الحكمة الإلهية، ينبغى أن تكون الصلاة حديث الروح للروح بين العبد وربه، لا لأن الله بحاجة إلى حديث يحمل إليه حاجاتنا، فإنه يعلم من أمرنا مالا نعلم، ولكن لأن حديث الروح يفتح شغافها، فإذا تفتحت انصب فيها ما يملؤها عزاء وحكمة من فيض من تفتح القلب للحديث معه، فإن فيض الحكمة موجود دائماً، وما علينا إلا أن ندنى أرواحنا وقلوبنا من سيلها الدافق، وأن نفتح القلب والروح لمناجاته فيمتلئان فضلاً وحكمة، إنه مجانا يعطى كالهواء والضياء، ولكن يجب أن نرفع الحواجز التى بيننا وبينه، تلك الحواجز التى أقمناها حين أبعدنا أنفسنا عن الله، إذ تصورنا أنه بعيد عنا، مع أنه منا قريب.